مقـــبرة عائمـة

للدكتور احمد زكى

ليست هذه حكاية من صنع الخيال ، ولكنها واقعة صدق ، أرويها عن راوية صادق ورجل مسئول :

سكيم وحكيم شابان من أهل الامبراطورية السماوية المقدسة التى يسميها أهل هذه الدنيا غير المقدسة بلاد الصين ، نشآ فى قرية من قرى مديرية « كانتون » ولازماها حتى بلغا سن الشباب الاول ، سن العشرين ، هذا باحتساب دوران الأرض واختلاف الليل والنهار ، فانك كنت تراهما فتحسبهما بلغا الثلاثين او فاتاها ، وتحدق فى وجهيهما الكالحين مليا فتجدهما مثقلين بهموم الاربعين والخمسين . وتلك المسحة الحزينة الكالحة تجدها حيثما ضربت فى بلاد الله فالتقيت بصبى شاب أو شيخ ، دائما أبدا ذلك الوجه النحيل الشاحب المسكين الذى تكاد تقطر منه الصفرة والألم . اشترك سكيم وحكيم مع شباب امتهم فى حمل ذلك الوجه الكالح الحزين ، وزاده كلاحة وحزنا فروض ثقيلة يفرضها الآباء على الابناء من يوم يخلقون ، فالابن دائما فى طاعة أبويه ومن متاعهما ، لقن صغيرا أنه انما خلق لخدمتهما وترفيههما وكسب معاشهما ، وأن وجوده فى هذا العالم لا يبرره الا التضحية لهما بالنفس والنفائس

وذات مساء ذهبا الى حانوت القرية الصغير يشتريان من الافيون أطيبه وأنضجه ، ويتخيران منه أكثره تسكينا للطبع الثائر وتخديرا للمزاج الحاد ، فقد كان اتفق فى تلك الليلة أن أبويهما لم يكونا على أطيب حال وأرحب بال ، فالتقيا هناك بعد غيبة أيام قليلة ملأتهما بالشوق الكثير ، فرحب حكيم بسكيم ، ورحب سكيم بحكيم ، وتساءلا مليا فى أدب كثير عن صحة أبويهما ، ولما بلغا من ذلك ما طمأن بالهما وأقر خوفهما ، انتقلا يصفان الزمن السيء ويشكوان ضيق الحال ؛ ويتأسفان على ما حاق بالقرية من الفقر والجوع

وكان الى جانبهما رجل من أهل الصفرة كذلك ، الا أنه سمين بدين ، وقد اضطجع على فراش من فرش الحانوت يهيء لنفسه تدخينة الأفيون ، وكان يستمع للشابين وشكاتهما ، فلما بلغا من الحديث ما بلغا ، شاء أن يتدخل فيأخذ بطرف من حديثهما فقال :

— نعم صديق ، ان فى الزمن سوءاً ، وان فى الحال ضيقا ، وكيف تقنع الروح فتهدأ وتخلد للسلام والمعدة فارغة ؟

فابتدره الصديقان :

— هذا حق . هذا حق لا مراء فيه

ثم أخذا يتساران :

— ان هذا الغريب المحترم لابد أن يكون فيلسوفا كبيراً لأنه يتكلم بلغة الحكماء.

وجرى الحديث بينهما وبين الحكيم المحترم ، وبعد تحية تلوها تحية ، وشكوى منهما يتلوها تأمين منه ، وبعد أن ذكرا للغريب مراراً أنهما وضيعان حقيران لا يساويان خردلتين ، تراءى للفيلسوف أن يفتح لهما عيبة حكمته ويذلهما على أقوم السبل وأقربها للعناية بآبائهما الأشياخ حتى تنفرج الأزمة الحاضرة . فذكر لهما جزيرة فى ناحية من نواحى البحر المحيط يسكنها شياطين شقر من الهولانديين يقومون فيها بزراعة الطباق فى مساحات مديدة واسعة ، ويستخدمون فيها الشبان فيعطونهم اجورا لا تحقق الا فى الاحلام ، هذا بشرطين : أولهما ان يكون الشاب قادرا ماهراً ، وثانيهما ان يكون له الحظ المجدود الذى ييسر له الخدمة لدى هؤلاء الشقر . وذكر لهما أنهما لابد مجدودان لأنهما وقعا فى سبيله ، وأنه هو أيضا مجدود باستطاعته اسداء الخير لهما على هذا النحو . وكان فى حديث هذا الفيلسوف عذوبة ، كانت كلماته ملساء تنزلق فى سهولة من بين شفتين ملساوين ، ولابدع فصاحبنا كانت تمرض عليه صناعته حذق الكلام ومواتاة القلوب ومصانعة الافهام ، فهو رجل من الرجال المغامرين ، الذين كانوا يحوسون خلال الريف يتصيدون الشباب البرىء الساذج يبعثون به الى وكلائهم بالموانىء ليرحلوهم فى طلب العمل وراء البحر الى حيث تشترى الابدان اغتصابا لقاء كراء دنىء وعيش رقيق

ولما كان فى طبع الصينى ارتياب ، وفيه كذلك حب المساعرة والممارسة ، لم يطمئن سكيم ولم يطمئن حكيم الى قبول الدعوة فى الليلة الأولى من عرضها ، وآثرا انتظار الغد ، فالغد الذى يليه ، وانتهيا أخيرا الى ان بلغا الطعم كما بلعه قبلهما ألوف وبشمن بخس ، بخمسة وثلاثين دولاراً فضة ، باعا الجسم والروح

وفى صيحة يوم كان سكيم وحكيم يدقان بأقدامهما تراب الطريق الى ميناء «كانتون» ، وهو ميناء فى الشرق الاقصى فى ذكر اسمه غناء عن سوء وصفه وشناعة الأمور التى تجرى فيه ، ولما بلغاه سيقا كالأغنام فى قطيع كبير من الضحايا الى سفينة صينية عتيقة عرفت البحار طرازها منذ خمسة قرون . وكانت سيئة النظام فاسدة التقسيم عاطلة من كل أدوات الراحة ووسائل العيش ، لا أقول الرفيه ، ولكن اللازم للتمييز بينه وبين عيش الأنعام وسائر الحيوان . دخل شباب الصين الى السفينة الصغيرة وكانوا خمسين ومائة رجل فملأوا طابقيها حتى ضاقا بهم ، ولكن لم يظهر عليهم أنهم ضاقوا بهما ، وكيف يضيق الصيني بشيء وهو من أمة يرى الرجل منها صنوف الكرب تحل به وبأهله ، وألوان الخسف والعذاب تنزل بغيره وبأهل غيره ، وهو يحدق الى هذه والى تلك بعين تنظر ولا ترى ، ومقلة إن أدركت من الصور مبناها فقد فاتها معناها

وتحركت السفينة باسم عزرييل بحراها والى جهنم مرساها . وبتحركها بدأت تتحرك الأمور . فالبحر أخذ يدور فدارت معه نفوس الراكبين — فى الأمم المتحضرة يذهب دوار البحر بوقار الناس ، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم فيحرصون على حرمتها فيتقون مايقع لهم من ذلك بالتخفى والتستر ، أما أصحابنا فلم يعرفوا الوقار اسما ، ولا لحرمة النفس معنى ، ولو أنهم علموا من ذلك ماعلم غيرهم لما أعناهم علمهم شيئا ، فلم يكن فى السفينة موضع فاضل ، فكيف بمكان ساتر ، وما حاجة الصيني العامل المسترق للستر والخفاء ، فمضت أيام ثلاثة ، اختلط فيها الانسان والمتاع والمكان ، بمقذوفات الحلوق فى جو امتلأ فسادا وتنضح سما

وصحا الجو فى اليوم الرابع فرفع الرجال رؤوسهم وقاموا الى وجبة من سمك وأرز ، الارجلين بقيا بلا حراك على ظهر السفينة . ومن أجل هذين اجتمع ربان السفينة بوكيله اجتماعا سريعا فقررا ان الرجلين يحتضران ، وانه لابد ألا يموتا فى السفينة فيجلبا لها الشؤم والخراب . وكان من عادة أمثال هذه السفن ان ترسى على شواطىء غير آهلة طلبا للوقود الرخيص الذى يفر اليها هربا من الضريبة . وفى أول ارساءة أنزل الرجلان فقرحا لذلك فرحا كبيرا ، ولكنهما مالبثا أن أدركا أنهما نزلا الى أرض لا أنس فيها ولا عون بل فيها المرض المتصل والموت البطيء . فبكيا واستغاثا يطلبان العودة الى السفينة ، ورفعا ايديهما عبثا بالرجاء والدعاء . وأقلعت السفينة بدونهما . وعلم الرجال الذين بها ان هذا مآل كل من يسقط منهم هذه السقطة ، ولكن لم يتحرك فيهم بنان باحتجاج أو لسان بكلمة دفاعا عن هذين البائسين ، وكيف يقع من أحدهم شيء فيه إفساد لمغامرة مالية تعود على نفسه وأهله بالنعمة والثراء ؟ وما هذه بأول مرة بردت فيها المنافع الذاتية الدم الانسانى فى موقف كان من طبعه أن يغلى فيه ويفور

سارت السفينة مع الريح جنوبا ، وكان يهب من الشمال شديداً ، فسرعان ما بلغت أرخبيلا يقع الى الجانب الادنى من بوغاز «مالقة» ، فانقلب اتجاه الريح فصار حاراً لافحاً ، وبدأ العطش يأخذ من الرجال فاستنفدوا صهريج ماء كامل . وفتحوا الصهريج الثانى ويفتحه انفتحت طاقة من جهنم .

فى مساء ذلك اليوم مرض ثلاثة من الرجال مرضا مفاجئا ، وماتوا موتا سريعا فلم يمهلوا ربان السفينة ليفعل بهم ما اعتاد أن يفعله بالمرضى اذا قل فيهم الرجاء . فاستاء الربان وتشاءم وتربص شرا . وقذف الرجال الاحياء بالرجال الاموات من فوق ظهر السفينة الى البحر ، الى أفواه «القروش» التابعة ، ووحوش الاقيانوس السابحة ، وكان فى وجوههم جزع ، وفى عيونهم رعب ، وكانت فى الجثث بشاعة وشناعة

فى الصين يعيش الناس فى فقر مدقع وجهالة سوداء ، وهذان يلدان القذارة فاذا حلت الحيضة (الكوليرا) بهم راعتهم أشد الروع فان كانوا على الارض فروا منها وتفرقوا سراعا فى كل صوب ، وفرقوا معهم عدوى المرض فى كل ناحية ، وان كانوا حيث لا مفر ولا منجاة استسلموا استسلاما كاملا ، واشتد بهم الخوف فجمدوا عن الحركة وهذا ماحدث لسكيم وحكيم واصحابهما على تلك السفينة المشئومة ، فانهم جميعا جلسوا القرفصاء ودلوا وجوههم بين أرجلهم يحدقون فى الارض تحديقا شديدا كانما يريدون خرقها بأنظارهم ، وهم انما يفكرون فيمن تكون عليه النوبة التالية ، وبأى اسم يهتف الهاتف عن قريب

ولم يطل تفكيرهم طويلا ، فما انتصف النهار التالى حتى أجاب الهاتف منهم ستة رجال ، وماجاءت العشية حتى زاد هؤلاء عشرة آخرين . وجاء النهار مرة أخرى وجاءت شمسه ، وأخذت تصب على السفينة أشعة لا من ضياء لطيف ولكن حممًا من النار ، وكان من حولها البحر هادئا ساكنا كأنه صفحة الزجاج ، تشقه السفينة

بصدرها فيسمع انشقاقه واضحا فى هذا السكوت الرهيب

وزاد جدول المرضى وطال ، وتحرك الريح فزادت سرعة السفينة ، وماليثت ان تراءت لها شواطىء جزيرة « سومطرا » . وكان البحارة خمسة فمات منهم ثلاثة - ومات اكثر الركاب أو كادوا فى سبيل الموت ، وأحدق الاحياء الى الارض البعيدة ، الى الأمل الناتى ، الى الحياة من بعد أن ذهب رجاؤهم فى الحياة . وكان من بينهم نفر ذهب الرعب بصوابهم فزادوا الحال خبالا

وعلم الربان ان السلطات لن تسمح بدخوله المرفأ الذى كان يطلبه على هذه الحال ، فنكب عنه ، وسار بحذاء الشاطىء يطلب مرسى آخر ، وبعد ساعات وصل الى ميناء صغير لهولاندا . وازدحم الرجال على ظهر السفينة ، وفى عيونهم برق الأمل ، وفيها كذلك بريق الدموع .

ولكن كان الربان اضطر الى أن يستعين على قيادة السفينة بأيد تعوزها الخبرة وينقصها المران ، فلم يستتم سيرها ، وظهر كأنها لا تعرف أين تميل ولا إلى أين تقصد ، أو كأنها تدرى ولكن لأمر ما تختشى وتخاف . فأثار ذلك الريبة فى موظفى الميناء فخرج اليها ضابط هولاندى فى قارب ومعه بعض الجند ، فلما بلغ صاح مترجمه الصينى الى رجال السفينة يسأل ما بها . فصمت الجميع وتطلعت الجثث المترامية على ظهرها

فصرخ الضابط : « انها الكوليرا . الكوليرا السوداء . لا سماح بالنزول والاهلك من بالجزيرة جميعاً . يا مترجم . صح بهم أن لا أمل فى النزول . وانهم ان أبوا نسفت السفينة بمن بها »

فكان بالسفينة هرج ، وكان بها مرج شديد ، واصطفت تلك الوجوه الجوفاء الشاحبة تطل على القارب تبكى وترجو فى ذعر ودهش من أن تبلغ القسوة هذا المبلغ من الانسان . وتحول الضابط بنظره عنها وفى قلبه إحساس قوى أليم بأنه انما حكم بالموت على هؤلاء التعسين ، ولكنها الاوامر لم يكن باستطاعته مخالفتها ، وغير ذلك فلم يكن بالميناء محجر صحى ينزل هؤلاء الاشقياء فيه

واجتمع الربان بوكيله ، واعتزما أن يعبرا البوغاز الى الشاطىء الآخر يحاولان النزول على شاطىء الملايا . كان هذا آخر أملهم فتمسك الرجال به تمسك الغريق بقطعة خشب عائمة ، فقام من استطاع منهم بالمعونة لتصل السفينة سريعا الى منزل الخلاص . وجاء الليل فمرض الوكيل وذهب . وجاء دور حكيم فدافع المرض بقدر ما فى جسمه من قوة ، ومر بكل ادوار الوباء وآلامه . ونظر الى صديقه سكيم والداء يملؤه ، يرجو ويسترحم ويطلب تخليصه ، ولكن سكيما فر ، فحكيم هذا لم يكن فى تلك الساعة صديق طفولته وصباه الذى كان يعرف ، ولكنه رجل يزفر الموت فى أنفاسه

وجمع القبطان رجاله ، وذكر لهم ان الخير فى تجريد السفينة مما عليها من الاثاث ، وفى تنظيفها من مظاهر الوباء ، وفى التخفى والتستر لكى يُسمح لهم بنزول الشواطىء . فبدأوا فى رمى الجثث الى البحر بسواعد تضطرب ، وفرائص ترتعد . وجاء دور الجثث التى لم تمت بعد ، فنظر اليها الرجال ولم يمدوا اليها يدا ، ونظروا الى الربان يستنبئون ، فصاح بهم : لابد من ازالة كل أثر فقذفوا بأجساد لاتزال بها حرارة الحياة . وكان حكيم لم يمت بعد ، فاسترحم واستغاث . ومرت رعدة شديدة فى ظهر سكيم لما رآه يقذف الى الماء . ولكنه لم يفعل شيئا

دبر الربان ودبر القدر ، فحدث مالم يكن ينتظر . سكنت الريح وكان تيار الماء قويا فى هذه المنطقة فحمل السفينة معه ، وحمل معها الجثث التى قذفت بها ، فسارت حولها فى موكب مريع ، وازدحم الرجال على السفينة ينظرون الى الرجال الذين يرقصون فى الماء . ونظر سكيم فيما نظر صديقه حكيما يصعد فى البحر وفى فمه صياح وفيه ازباد وارغاء ، ثم يغطس غطسة فسرتها ستٌ من زعانف سوداء ، أكلت « القروش » حتى شبعت ، ومع ذلك بقيت على المائدة بقية صحبت السفينة حتى بلغت ميناء « كلانج »

وكان البرق قد طير خبر السفينة الى « سنغافوره » فخرج رجال الميناء يطلبونها . فأقبلت تتهادى فى ثقة من النزول هذه المرة لأنها تخلصت من آثار الوباء أو خالت انها تخلصت منه ، ولكن حال الرجال الذين حملت كانت تنم عن كثير ، وغير هذا فقد دخلت تجرر فى أذيالها على الماء من بقايا الأموات وثائق حية تعلن التهمة للرياح الاربع

فأحاط بها الجند من كل ناحية ، وساقوها الى جزيرة العزل ، أما الاموات فدفنوهم مع كثير من الجير ، وأما البقية القليلة الباقية فركزوهم فى نطاق مضروب ، ومرضوهم فمات منهم ثلاثة ، وخرج الباقون بعدهم فى ذهول كبير ، الى الدنيا بلا خوف ، الى الارض الجامدة الواسعة الأمينة ، يستقبلون حياة جديدة وأملا جديدا . وكان كلما نظر ناظر منهم الى خلفه اقشعر .

احمد زكى